صورة ... وأعجوبة

في كنيسة مريم الكبرى في مدينة رومية، دخلت خاشعاً قبل قرون عديدة. أدهشتني الكنيسة القديمة بفنها المعماري الفاتن الهائل، فأي معماري هندسها بهذا الجمال وهذه الدقة المتناهية؟! إنها المحبة، هي التي دفعت هذا الفنان العظيم أن يشيد هذه الكنيسة بهذه الصورة المبهرة، حبه لسيدتنا العذراء وإيمانه الصادق بإبنها المخلّص ربنا يسوع دفعه إلى الإبداع في فنه وعمله .. *فلا إبداع في عمل دون حب لذلك العمل.*

وبعد سماع القداس والصلوات، وبعد أن خرج المؤمنون، بقيت وحدي أمتع ناظري بالصور الفنية المعلّقة على جدران الكنيسة .. هذا الفن الرائع الذي يجسم كل حياة ربنا يسوع وأمه مريم القديسة وتلاميذه الأبرار الشجعان الذين حملوا بشارة المسيح ورسالته إلى العالم مع غصن زيتون. لقد بشروا بالكلمة _ والكلمة وحدها _ دون إكراه أو زجر بكلمة أو بحرف لأي إنسان كان.

لقد استهوتني هذه الصورة الرائعة التي تعبر عن *قيمة روحية سماوية*. أجل، ركعت أمام الصورة وصلّيت، ثم وقفت وأنا ما زلت مبهوراً بها. لقد نقلتني إلى أجواء سمائية روحية، وهي تمثّل العذراء واقفة بهيبة ورزانة، نور سماوي يشع من وجهها ويحيط به، يجذب الناظر إليها شاء أم أبى، وقد ذمت بين ذراعيها إبنها الوحيد يسوع الفادي، يسوع معلّم البشرية وراسم طريقها ومسارها نحو النور، وكان الطفل الفادي بين ذراعي أمه وهو على ما يرى ابن أربع سنين، وقد رفع يده اليمنى ليبارك الإنسان في كل مكان وزمان _ لقد أحب يسوع الإنسان والعالم، وجاء من أجل خلاصه _ وفي اليد اليسرى في الصورة كان حاملاً الإنجيل _ البشارة التي بشر بها بالكلمة في فلسطين، في كل أراضي فلسطين حتى وصل بقدميه الكريمتين إلى صور وصيدا، ثم انتقلت كلماته إلى أقصى المعمورة. ففي كل زاوية من الأرض نجد كلمات يسوع مطبوعة في قلوب الناس، وكان نور سماوي يحيط بوجهه الطفولي الجميل، وكانت أمه العذراء مغطّاة برداء طويل يعلوه صليب يوناني يلمع في جبهتها.

كنت أتمعن في هذه الصورة التي جذبتني بفنها (شكلاً ومحتوى) _ *ولأن إكرام الصور المقدسة يعود إلى الشخص الذي تمثّله كما يقولون* _ لذا وقفت أمامها خاشعاً، متذكّراً شخصيها البارين العظيمين _ يسوع وأمه _ اللذين بشرا العالم برسالة السماء بالكلمة والعمل.

التفت على صوت أقدام خفيفة، فرأيت كاهن الكنيسة يقترب مني وعلى وجهه إبتسامة، ووقف بجانبي بعد أن حياني.

- الكاهن: هل أعجبتك الصورة؟.

- إنها رائعة أيها الأب. إنها كنزٌ من كنوز الفن، فهـي تمثّل أعظم شخصين في عالم المسيحية، يسوع وأمه.

- آه، هذا هو تأثير الفن في النفوس. إن الصورة الفنية *وسيلة للتثقيف والتعليم والبنيان الروحي.*

- أجل أيها الأب، إنه فن نحتاجه. إنه وسيلة للتعلـيم، *كما إنّ الكلمة تعلّمنا بحاسة السمع فإنّ الصورة تعلّمنـا بحاسة البصر،* وأنا لأعجب من أناس يكفّرون الرسـوم، ويمنعون تعليقها في الكنائس.

- الكاهن: إنه جهل مارسه البعض في تلك الـسنين، وسببوا لنا إضطهادات كثيرة غير معقولة وغير إنـسانية. إننا يا أخي ننشر كلمات يسوع بالكلمة والخطبة والقصة والمقالـة والمحاضـرة، وبالـصور الفنيـة والأيقونـات والمنحوتات.

وصمت الكاهن لحظة ثم اسـتمر: ألا تعتقـد أن الكنيسة لها دور كبير في تقدم الفـن في العـالم والفـن المعماري؛ الرسم؛ النحت؛ الموسيقى؛ التمثيل؛ وغيرها من الفنون الأخرى.

- أجل يا أبتِ، بالصواب نطقت. وما هذه الصور التي وصلتنا منذ عصر النهضة في أوربا ومـا قبلـها ومـن منحوتات وألحان كنسية وأناشيد وترانيم ومسرحيات إلاّ دليل ساطع على كلامك.

- الكاهن مبتسماً: يبدو إنك مطّلع على ذلك!.

- أجل يا أبتي، وهل يخفى نور الشمس بغربال؟! فسم من الجهلاء يقولـون إن وجـود الـصور والأيقونـات والتماثيل تعيد إلينا عبادة الأصنام _ هز الكاهن رأسـه مبتسماً _ وتابعت كلامي: يا للجهل الفظيع عند هؤلاء!! لقد ولّت عبادة الأوثان من غير رجعة منذ عهد إبـراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الأنبياء. وهل هذه الـصور والتماثيل ترجعنا إلى عبـادة الأوثـان؟!! *إننـا نكـرم الأشخاص الذين تمثلهم هذه الصور والمنحوتـات، ولـن نعبد إلاّ إلهاً واحداً خالق الكلّ. لا نعبد صوراً كما يعتقد الجاهلون.*

- ابتسم الأب وقال لي: سأعطيك فكرة تاريخية عـن هذه الصورة، وهو يشير إليها. *إنّ هـذه الـصورة تعـد الأصح بين الصور المنسوبة إلى القديس لوقا.*

- ياه!! رسمها القديس لوقا!! يا له من رجـل عظـيم أعطاه الله مواهب كثيرة!!.

- الكاهن: وبهذه الصورة حدثت معجزة كبيرة سجلها لنا التاريخ الكنسي.

- آه .. وكيف يا أبتي؟!.

- الكاهن: عندما انتشر مرض الطاعون، هذا الوبـاء الخطير في مدينة رومية، أهلك الكثير من الناس، فحمـل هذه الصورة القديس غريغوريوس *وطاف بها في شـوارع المدينة، فهرب الطاعون منها،* أجل هرب هـذا الوبـاء الخطير الذي كان يحصد بالبشر أمـام صـورة العـذراء وإبنها، وزال الخطر عن المدينة. *أجل هـرب الطـاعون الخطير الشره مخذولاً ذليلاً أمام صورة العذراء وإبنها.*

- وصمت. يا إلهي! تبارك اسم الرب على مر الدهور والأيام. ثم ركعت أمام الصورة، وركع الكاهن معي، وأنا في حالة من الذهول. ورفعنا أيدينا إلى السماء، وقلـت: تبارك الله في مجده. تبارك يسوع وأمه في مجد الله. وليحلّ السلام والأمان في ربوع بلدنا الجريح. ويا ليت لنا مثـل هذه الصورة لنطوف بها في شوارع بغداد كـي يهـرب العنف، ويهدأ الحقد والبغضاء في القلـوب، وتـسكت المدافع، ويحلّ السلام .. آميـن.

القاص: زهير إبراهيم رسام

١. الأعجوبة: عمل أو حادث يدعو إلى العجـب، غـير طبيعـي. ج: أعاجيب. مثل: نجا من الموت بأعجوبة.

٢. المعجزة: أمر خارق للعادة، يعجز الإنسان أن يأتي بمثلـه. مثـل معجزات ربنا المسيح في إحياء الموتى وشفاء المرضى والمقعدين.